

عالمية الإمام موسى الصدر: طريق اليقين في زمن الريبة

رائد شرف الدين

مجلس الدراسات الشرق أوسطية (CMES) - جامعة يال (Yale)،
ه آذار ٢٠١٣ | نيو هايفن - الولايات المتحدة الأمريكية

قائمة المحتويات

- ٢..... لماذا الإمام الصدر اليوم؟
- ٣..... مفهوم "العالمية"
- ٤..... العالمية في الإسلام
- ٩..... الإمام الصدر والعالمية
- ٢٠..... عالمية النموذج اللبناني في الحوار المعاصر
- ٢٤..... الخلاصة: أهمية الفكر الصدري في الوقت الحاضر

١. لماذا الإمام الصدر اليوم؟

تشكّل المنطقة العربية رابطة العقد في العالم الإسلامي، ويصح ذلك جغرافياً كما يصحّ تاريخياً وثقافياً. لقد نزل الإسلام على الرسول محمد (ص) بالحرف العربي وفي شبه الجزيرة العربية، ومنها انطلق إلى بقية العالم. لا تزال ديار الإسلام ساحة تفاعل وبيئة حاضنة للعديد من التوترات والاتجاهات المتنازعة رغم مرور أربعة عشر قرناً على نزول الوحي. تعود بعض القضايا الخلافية إلى السنوات الأولى لظهور الإسلام، واللافت أنها لم تحسم بعد. من تلك القضايا مسألة الخلافة وتداول السلطة؛ الفصل بين الدين والدولة، الاجتهاد والتقليد، وغيرها. و ليس الخوض في أيّ من تلك القضايا ترفاً فكرياً، بل أمرٌ على جانب كبير من الأهمية والإلحاح، حيث الحراك السياسي الراهن يمور في لجة الاضطراب والتشّلع وانعدام الرؤية.

يمكن تلخيص تحديات الوقت الراهن بثلاثة ظواهر رئيسية:

- انكفاً النشاط العنفي لبعض المجموعات المتطرفة عن الحواضر الغربية ويتركز حالياً في الساحات الإسلامية حيث تنتشر مساحات البؤس والإقصاء وتشكل بيئة خصبة لاحتضان تلك المجموعات. ولن يلبث الأسلوب العنفي أن يضرب الغرب كما الشرق إذ يصعب احتواؤه في حيز جغرافي محدد؛
- ترنحت أنظمة الاستبداد والتبعية في غير مكان، وانكشف المشهد على ارهاصات مدنيّة ومعارضات جنينية لم تتأطر بعد في بدائل مؤسسية تحمل رؤيا وبرنامج؛
- تبخرت فوائض البترودولار ولم تينع التنمية الحقيقية في أي من بلدان الإقليم الشرق-أوسطي، بل إن تلك الفوائض تساهم اليوم في ترجيح القوى الطرفية على مراكز الثقل والمحورية، وبمنطق الغلبة واقتناص اللحظة؛

أدت تلك العوامل - وهناك غيرها بالطبع- إلى ملء الفضاء السياسي بكل أنواع الملوثات. ساحات المدن مشغولة اليوم بالهموم الحياتية والأمنية، بالفوضى والقلق، وبمخاطر تفشي الصراع بين الطوائف والمذاهب وانزلاقه تجاه الأقليات. تلاشت تماماً أصوات الحكمة واستبعدت آليات الحوار.

كيف يواجه المسلمون معضلات العصر الحديث؟ وهل يجدون في نصوص الشريعة ما يمكنهم من تدبير شؤون الناس في الإدارة والغذاء والأمن والعمل؟ وهل استشرف أحد الرواد الحواريين مخاطر المرحلة؟ وكيف؟ ولماذا استبشر في لبنان أمانة في أعناق أبنائه ورسالة حضارية إلى العالم؟

تعرض هذه الورقة لتلك الأمور وتُبيّن كيف تبّه الإمام الصدر منذ ستينيات القرن الماضي للمخاطر التي تعصف بنا اليوم. بعد التطرّق إلى مفهوم العالمية كمدخل، سوف نبّحث في جزأين:

الأول: العالمية في الإسلام

والثاني: الإمام موسى الصدر، والعالمية:

- ١- المباني الفكرية في حياته ومساره
- ٢- الاجتهاد عند الإمام الصدر
- ٣- نماذج وتطبيقات عملية للفكر الصدري
- ٤- عالمية النموذج اللبناني في الحوار المعاصر

ونخلص إلى أهمية هذا الفكر في الوقت الحالي، إذ أنه رأى في لبنان رسالة حضارية للعالم، وذلك انطلاقاً من تعدديته العقائدية والثقافية، ونادى باعتماد الحوار أسلوباً لتشييد نموذج إنساني يرنو إلى الكمال. وأرسى منهجاً تشاركياً في التنمية يؤمن بالإنسان وقدراته، بدءاً من استعادة الثقة بالنفس وبالآخرين.

II. مفهوم "العالمية"

العالمية، فلسفياً، هي الحقائق الصالحة لكل الناس وفي كلّ الأزمنة. والعالمية، أخلاقياً، تعني منظومة القيم التي يتقاسمها كلّ الناس. يذهب شومسكي إلى أن العالمية (Universality) هي من بديهيات المبادئ الأخلاقية، وفحواها أنّ ما هو صواب بالنسبة لي هو كذلك بالنسبة لك، وما هو خاطيء لي خاطيء لك. هذا ما يجب -لا سيّما في زمان الكيل بمكيالين- أن يكون في صميم أيّة قاعدة أخلاقية جديرة بالاهتمام! والعالمية -عموماً- هي ما يتصل بطبيعة الناس التي ولدوا عليها ومعها. فمعاناة كلّ البشر من الألم هي خير مثال على هكذا سمات إنسانية عامة وشمولية. وهناك غيرها بالطبع مثل الخصائص المنطقية وبعض طرائق التفكير والسلوك. ونستطيع بسهولة أن نميز تعابير الوجه المرتبطة بالغضب أو الخوف أو الحزن أو السعادة، مما يدلّ على أنها سمات طبيعية وعامة لكل البشر.

دينياً، تقوم المسيحية على فكرة أن سيدنا المسيح مات ليفتدي كل الناس. والمذهب اللاهوتي يقصد بالعالمية أن الناس جميعاً وبلا أي استثناء سوف يدخلون الجنّة إلى جانبه، ولن يكون هناك أحد في الجحيم. الإسلام بدوره جاء لكل الناس حسبما جاء في دعوة الله للرسول الأكرم (ص): (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء/١٠٧]. كما يقوم المعتقد الإسلامي على فكرة التراكمية والإيمان بمن سبق كشرط لاكتمال الرسالة المحمديّة. فالتنزيل مشتمل على كل ما

انزل الله به من يوم آدم وصولاً إلى سيدنا المسيح وختاماً بالنبى محمد (ص) (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [آل عمران/٨٤]. وسوف يكون مدهشاً كيف أفلح المسلمون الأوائل في استقطاب العلوم والفنون والآداب التي سبقتهم. وبذلوا الكثير لحياتها وترجمتها وتطويرها، ثم نشرها مجاناً حيثما وطأت أقدامهم أو طالت أيديهم. ولو أدركنا حركة التجارة التي أطلقوها في امبراطوريتهم الواسعة (أمر المأمون بإعداد خريطة للعالم) لاستطعنا تسميتهم برواد العولمة مع حرصهم على توخي العدالة والإنصاف.

كما نشير إلى مصطلح "القاعدة الذهبية" التي تجمع عليها معظم الأديان، بما فيها الهندوس والكونفوشيوس، والتي مؤداها أن "عامل الناس كما تحب أن يعاملوك". وفي اللغة والإعلام: العالمي، والعالمية هي صفات تطلق على الأشياء واسعة المدى والانتشار. أما حقوقياً، فما يتبادر فوراً إلى الذهن هو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمبني على مسلمة أن المبادئ الأخلاقية تتصل بكل الناس. فكل الناس لديهم حقوق، وكلهم يتمتعون بذات الحقوق.

ومقابل هذا الإطلاق، هناك فكرة النسبية^٢ والتي تعني أن كل وجهات النظر هي مبدئياً صالحة. وهنا يميز علماء الانثروبولوجيا بين الثقافات المختلفة، وما تنفرد به كل ثقافة من خصائص وسمات. كما يمكننا الحديث عن الخصوصية بمواجهة العالمية. وإذا كانت الثقافات العالمية تحبذ القواعد والإجراءات المكتوبة، فإن الثقافات الخصوصية أو المتميزة تركز على العلاقات وطبيعتها ومتانتها. وتعتبرها -لا سيما في دنيا الأعمال والصفقات- أكثر أهمية من العقود والتفاهات المكتوبة، بل إن هذا التفاهات تبنى وتتطور تبعاً لتطور العلاقة.

نخلص إلى أن "العالمي" هو كل ما يتعدى في تأثيره الإطار المكاني أو الزماني الذي نشأ فيه. ويلاحظ الباحث في نتاج الإمام الصدر أن اختياره للبنان ميداناً للعمل نابغ من قناعته بصلاحية هذا الوطن الصغير لأن يكون نموذجاً عالمياً لناحية قابلية تجربته للتعميم والتأثير، لا سيما تجربة الحوار والتعايش.

III. العالمية في الإسلام

١-١ ماهية الإسلام

الإسلام هو التسليم لله الواحد والإطاعة له عقلاً وقلباً وجسداً. غايته تنظيم العلاقات بين الإنسان وبين الكون الذي يعيش فيه. اختصاص تسمية الإسلام بالرسالة التي حملها محمد (ص)، هو أن الإسلام يعتبر أنه بمحمد ختمت رسالات الله. وتوقف الوحي أواخر أيامه بالآية: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ نِعْمَةٍ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة/٣]،

ويعني أن الرسائل السابقة لرسالة محمد (ص)، كانت مراحل للرسالة الإلهية. يأتي بها الرسول حسب وعي الناس ودرجة علمهم. ولذا، كلُّ رسول يدعو إلى الله الواحد بما يتناسب مع عصر الرسالة.

فالرسول (ص) أسلم أمره لله على ملة النبي إبراهيم أبي الأنبياء جميعاً. وهذا يعني أن جميع ما جاء به الرسل من إبراهيم مروراً بإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف حتى موسى وعيسى ومحمد هي رسالة واحدة.

{أَمْرٌ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة/133].

ولو أردنا أن نكتفِ الإسلام في عدد محدد من المفاهيم، لتبيّن معنا أن هذا الدين هو قاعدة فكرية عالمية تركز للمؤمن مفاهيم معيّنة هي بمثابة الأساس لإيمانه وعباداته وحقوقه وواجباته ومثله الأخلاقية. وعليه فإن:

أ- خالق الكون:

هو إله واحد أحد، عالم، عادل، أزلي، أبدي، غني عن العالمين، ليس بينه وبين شيء أو شخص أو فئة أو وضع صلة ولا انتساب، لا يزيد ولا ينقص. وهذا المفهوم يوجه الإنسان إلى الشعور الفطري لسمع صوت ضميره الذي ينادي بالإيمان، ثم يطلب منه أن يتدبر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وفي الآفاق والأنفس، لكي يتبيّن له الحق، تبيّنًا عقلياً حتى يعيش إيمانه بعقله وقلبه.

ب- الكون:

فالكون مخلوق واحد مشبع بالروح والجمال، منظم متزن، سائر نحو أسمى الأهداف، قائم على أساس الحق والعدل، متناسق، متجاوب في أجزائه بعضها مع بعض ومع الخالق*. وفهم هذا الكون بهذا الشكل له تأثير كبير في معنويات الإنسان وسيره وجهاده، وفي شعوره بمواكبة الكون له في أداء رسالته في الحياة.

ج- الإنسان الجزء المميز من الكون:

فهو مخلوق على صورة الخالق في أسمائه وصفاته، خير بالذات، مفطور على الدين الحنيف، يتمكن - بحسب خلقه - أن يسير في خطه المرسوم له، مخيراً في سلوكه نحو الكمال لا مسيراً.

* الكون حسب شروحات الإمام الصدر هو الـ Cosmos مقابل الـ Chaos

د- وهو أيضاً الخليفة لله في الأرض:

سخرت له القوى الكونية كلها. والطريق الوحيد إلى المقام المنشود - مقام خلافة الله في الأرض - وهو تحوّل الطاقات الكامنة إلى فعل خارجي، وتجوهر العلم بالكون وقواه واكتشاف قوانينه. وعلى هذا المفهوم يبني الإسلام قواعد لتنظيم صلة الفرد بالفرد، وبالمجتمع، وبالكون. يرشد إلى كيفية معاملة الإنسان لأخيه الإنسان ويبعث، في نفس المؤمن أملاً بالمستقبل وحُسن ظن بالآخرين، وإيماناً بنجاح دعوة الحق وبانتصار العدالة التي تؤيدها قوى الكون، وتناصرها ضمائر بني الإنسان.

هـ- المجتمع الإنساني:

ففي المجتمع، يرى الإمام الصدر من واقع (أنّ الإنسان الذي هو مبدأ المجتمع والغاية منه)^٣: إنه مجتمع إنساني، مجتمع موحد متماسك، لا منقسم متصارع ملوّن حسب انفعالات الأفراد والجماعات بالمؤثرات الكونية التي تحيط به، واحد في كثرته، شأن الكون كله، وشأن الإنسان نفسه، متعاون متسابق إلى رضوان الله.

و- مفاهيم أخرى

ويقدم الإسلام أيضاً مفهومات عن العمل الذي هو عبادة إذا اقترن بالإخلاص. ومفهومات عن الدنيا والآخرة، وعن الجسم والروح، وعن الخير والشر، وعن الطيبات والخبائث، والحلال والحرام. كما يعيّن معنى الصلاة والصوم وغيرها من العبادات. وهذه ليست إرضاء لله ولا لإيصال نفع إليه، ولا لدفع غضبه، ولا للإكثار من جاهه، وإنما تحرر من كل ما سواه. "الهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك" [الإمام علي بن أبي طالب (ع)].

هذا هو الإسلام، دين الله بمختلف تسمياته، وقد أخذت الرسائل الداعية إليه مناهج متعددة، ولعلنا لا نجازف كثيراً لو قلنا بأن الأكثرية الساحقة من المسلمين الفطريين سوف تعرّف الإسلام كما أسلفنا أعلاه. وإن كانت الأيام الراهنة وما يكتنفها من قلق وعنف يمكن أن تحرف المفهوم الفطري نحو اتجاهات أُخر.

١-٢ الإسلام بين النظرية والواقع

هذا على مستوى المفهوم. أما على مستوى التطبيق وقابلية هذه المفاهيم النظرية لمواكبة الواقع بتغييراته وتطوراتهِ المتسارعة، نلاحظ وجود ثلاث مدارس أو تيارات لتوصيف مدى مرونة الإسلام وقابليته مفاهيمه لمواكبة التغيير والتطور:

- الإسلام الجذري أو الأصولي أو الراديكالي، والذي يقاوم أشكال التكيف والتأقلم والتأويل، ويطالب بالالتزام بحرفية النص وإحياء الطقوس والعادات والممارسات التي كانت سائدة أيام الرسول عند نزول الوحي، والافتداء بها في معالجة شؤون الدنيا والمجتمع والدين؛
- الإسلام المتكيف مع البيئة والظرف، حيث يمكن تبيين التمايز بين الثقافة الأندونيسية والماليزية والمغربية والتركية. بموجب هذه المدرسة، استطاع الإسلام أن يسم شعوب هذه البلدان دون أن يلغي تقاليدها أو خصوصياتها الثقافية والإثنية؛
- والإسلام المنفتح عبر الاجتهاد، وفيه دعوة إلى استنهاض المجتمع الإسلامي من خلال تفسير النص الديني بحيث يستطيع الاستجابة لتحديات الزمن المعاصر وما يفرزه من تشكيلات اجتماعية ومؤسسية وثقافية.

يشير هذا الكباش الذهني- الثقافي سلسلة من الإشكاليات المعرفية والتوصيفية. ولو أردنا تكثيفها في مفهوم واحد أو اثنين، لاستبقينا الاجتهاد والتقليد. حسب جمال الدين الأفغاني، فإن التقليد الأعمى والرتيب لأفعال القدامى يؤدي إلى البلادة والبلاء، وينم عن الغباء والجمود. و يدعو المجدد محمد عبده من جهته إلى تحرير الإنسان من جمود التقليد، ولا بأس عنده من استقاء المعرفة الدينية من أسسها على أن تخضع لميزان العقل الذي ميزنا الله به. فالإنسان - بعقله- يزاوج العلم بالإيمان لاستكشاف أسرار الوجود.

سوف نلاحظ أن الخروج من الإسلام المقيّد زماناً ومكاناً نحو الفضاء العالمي للإسلام، هو انتقال من "قداسة" التقليد نحو رحاب العقل وآفاق الاجتهاد. وهي فعلاً آفاق متعددة، إذ ستتعدد مدارس الاجتهاد وأبوابه، والتي يمكن أن نصنفها لأغراض هذا البحث ضمن مداخل ثلاث. وهي :

❖ الشريعة المنفتحة ذات النظرة الاجتهادية: والتي بموجبها يحاجج الكثيرون بأن الرسول محمد (ص) أعطى في أيامه عهداً صريحاً لغير المسلمين في المدينة، أي أنه أقرّ لهم بحقوق وتعهد بضمانها. ويذهب الكاتب التركي عبد الرحمن دوا إلى أن القرآن الكريم هو أول دستور مكتوب في العالم؛

❖ منطقة الفراغ، كما عبّر الشهيد محمد باقر الصدر أي تلك المجالات والموضوعات التي لم تتطرق لها الشريعة. وهي- بحسب المفكر المصري محمد سليم العوا- ما أرادته الشريعة من المسلمين لناحية استجابتهم للتغيرات والظروف والأحداث. القرآن هو مجموعة من المبادئ العامة والخرائط التوجيهية، والتي تتعمد إطلاق حرية الإنسان في معالجة التفاصيل والمعاملات. وليس سهواً أن الشريعة لا تحبذ شكلاً معيناً للدولة أو آليات محددة للحكم، كأنما هي تحث الناس على النمو والتطور والتغيير عبر البحث والاجتهاد؛

❖ تفسيرات الشريعة (وليس تفسيرها الواحد): الاختلاف والتعددية في الإسلام منصوص عنهما في غير مكان، وهي تعددية على ذات المستوى من التقدير والقيمة بالنسبة للإسلام. وإذا كان الدين الموحى به إلهي وواحد، فإن علوم الدين بشرية ومتعددة. وتعدديتها تتيح وتبرر - في آن معاً- الحوار فيما بينها بما يفضي إلى الارتقاء نحو مراحل أكثر كمالاً في المسار البشري.

١-٣ الإسلام والإجتihad

المجتهد ليس مشرعاً ولا مغيراً للقوانين الشرعية، بل ينظر ويوظف طاقته في إستخراج الحكم وتطبيقه على موضوعه. والموضوع يشغل دوراً مهماً في تطوير الأحكام، إذ المقصود من الموضوع هو فعل المكلف، وهو يتغير بحسب الأزمان والمجتمعات. فالمجتهد بعد درس الموضوع المستجد يحاول إخراج حكمه من الأدلة ومصادر التشريع. وكثيراً ما يكون الموضوع أمراً جديداً ليس له نظير في أيام التشريع، فيحاول المجتهد استنباط حكمه عن القوانين العامة والأصول الكلية. وعليه، فإن دور المجتهد هو فهم الحكم الإلهي للموضوعات وليس دوره مراعاة المصالح والظروف، ولا وضع قانون أو حكم جديد للشيء.

المقصود من محاولة المجتهد استنباط حكمه عن القوانين العامة ليكون الحكم نتيجة جهد وبحث وتأمل بما أمامه من نص وليس أخذ النص بذاته، وجعله سند الحكم دون ما هنالك من نصوص وقوانين عامة. هي - إذن- آليات في توجيه الجهد، إلى جانب النص، تجعل من الحكم المستنبط قابلاً للتطبيق. وهنا نجد أن عملية الإجتihad هي مصدر للفتوى، ودليل يستدل به. هذا، ويختلف دور المجتهد عن دور المحدث من حيث أن المحدث ناقل، والمجتهد يضم جزءاً من نفسه، وهو رأي، إلى الواقع. ويختلف دوره عن دور المشرع من حيث أن المشرع لا يتقيد إلا بمصالح وظروف معاشهم. يتوقع من المجتهد أن يتحلّى بشخصية لها إستقلاليتها، لا مرجعية له من الفقهاء، ولا يتقيد بفتاوى الآخرين، ولا حرج عنده أن يخالف اجتهادات سابقة.

وبتعبير الإمام الصدر، (الإجتihad حركة فكرية، واستقلال في الرأي، وانطلاق لتطبيق الأحكام المستنبطة على الحياة المتطورة، مع الإحتفاظ بالإطار الإلهي للأحكام. وإذا لم يتقيد الإجتihad بهذا الإطار، فالحكم الديني يفقد مفهومه وأساسه لأن العنصر الأساسي للدين هو كونه إلهياً صادراً عن الغيب. فإذا انقطعنا عن الغيب واستنبطنا الأحكام حسب الظروف والمصالح فلا يمكن اعتبار الحكم دينياً، بل يصبح قانوناً بشرياً)°.

"عالمية" الإسلام بديهية في النص: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة/ ٢٥٦]
{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود/ ٨١]
أما عالمية الإسلام عند المسلمين فمسألة فيها نظر.
ماذا يقول الإمام الصدر؟

١٧. الإمام الصدر والعالمية

شقَّ الإمام الصدر مسيرته في زمن عالميتين عصريتين ترتكز كل منهما على الجانب الإقتصادي، وهما عالمية المجتمع الفردي وسيطرة رأس المال، وعالمية سلطة المجتمع ودكتاتورية البروليتاريا. يقتضي التمييز بين هاتين العالميتين وعالمية الدين بحثاً منفصلاً لا مجال للخوض به هنا. سنلاحظ في خلاصة البحث أهمية الفكر الصدري في الوقت الحالي، وقت العولمة الثقافية والاقتصادية. أمّا هنا، فسيقتصر حديثنا على الإمام الصدر وبعده الرؤيوي، كنموذج لعالمية فكر معزّز بفعل تغييري ملموس. ولن تكتمل الصورة إلا بإعطاء لمحة عن جذور سماحته بما هي المكون الثقافي والذاتي، وما يحيط به من مناخ الإحتضان والإنبات. ثم نقف على فهمه لمهمته الإجتماعية، بما هو عالم ديني ملتزم بعقيدة.

فالإمام السيد موسى الصدر* غصن من فروع سلالة تمتد حتى الإمام علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء ابنة النبي محمد. ولهذه السلالة موقع خاص في الوجدان الشيعي ومحلّ تكريم عند المسلمين عموماً. لرجال هذا الفرع في كتب تاريخ الإنساب والسير عراقية في العلوم الدينية أهلتهم لأن يكونوا في الموقع الأبرز من عصرهم. ومن ميزاتهم أنهم لم يكونوا منقطعين للمجال الإرشادي والبحثي دون الإهتمام بالشأن العام وقضايا الناس. وقد عرضهم هذا الالتزام لغضب الحكام، وأدّى إلى إيقاع كل أشكال الظلم والإضطهاد حتى السجن عند بعضهم، والإعدام عند البعض الآخر. وتوازياً مع اضطهاد الحكام لهم، تعاضم دورهم القيادي عند عارفيهم، وبالخصوص المحرومين منهم، وبهذا فقد كانت القيادة من طبائعهم إن كانت دينية أو كانت تصدياً للقضايا العامة^١.

لهذه الأسباب، انتشر توطن أفراد وجماعات من هذه السلالة من مصر حتى الهند. وتمركز القياديون منهم في صور- لبنان، وفي النجف والكاظمية من عواصر العلم الديني في العراق، وفي أصفهان وقرم من إيران. وكل جيل فيهم مطلع على المستوى العلمي والدور الإجتماعي عند أبناء جيله. يتواصلون كتابياً وقليلاً ما كان بينهم لقاءات مباشرة. ولذلك، فإن الإمام الصدر عندما قام بزيارة عائلية لصور سنة ١٩٥٥ وهو دون الثلاثين عاماً، وجد نفسه في بيئة تعرف الكثير عن مستواه العلمي، وعن توجهاته. حتى إذا عاد إليها سنة ١٩٦٠ ليملاً شاغراً تركه كبير من هذه السلالة كونه مرجعاً للشيعية في لبنان، كان وروداً طبيعياً للموقع والخط، وكأن لم يمض ١٧٥ سنة منذ خروج جده الأعلى من لبنان، وعودته هو إليه.

* ولد الإمام السيد موسى الصدر بقرم في ٤ حزيران ١٩٢٨. أبوه آية الله السيد صدر الدين الصدر. وأمه السيدة صفية ابنة آية الله السيد حسين القمي. تخرج من جامعة قرم الدينية بدرجة الإجتهد. ومن كلية الحقوق في جامعة طهران بدرجة ليسانس - قسم الإقتصاد السياسي.

كيف يمكن أن نوجز تجربته في لبنان؟ إلامَ آلت؟ وكيف يمكن لهذه التجربة أن تساعدنا على فهم الأحداث الراهنة، أو -ربّما- على استدراك الأسوأ من الأيام؟

تتابع في هذا الجزء الموضوعات التالية:

- المباني الفكرية في حياته ومساره
- الاجتهاد عند الإمام الصدر
- نماذج عملية للفكر الصدري
- نظرتة للبنان الوطن وعالمية الكيان

٢-١ المباني الفكرية في حياته ومساره

٢.١.١ جوهر الدين السلام

يؤكد نبي الإسلام: " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**". أي أنه أت ليحسّن الحياة العملية للإنسان، ثم الحياة الإجتماعية، بل العلاقات بين الشعوب. الدين الإسلامي يأمر أتباعه بالدخول في السلم كافة، ويجعل تحيتهم سلاماً. والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العليا، تنعكس على الكون وتتجلى في الخلق، فهو سبحانه السلام، ومنه السلام، وإليه يعود السلام ودعوته للعالمين السلم والسلام. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً} [٢٠٨/ البقرة].

(والكون هذا المحراب الكبير للسجود والتسبيح لذات الله، والمجتمع المنوّع المترابط من البشر، والإنسان - هذا الموجود الممتاز - كل ذلك مخلوق لله، موصوف بصفة السلام الإلهي، كل منها نموذج من الآخر، فالسلام الكوني والسلام الفردي يعطيان نهجاً منطقيّاً عن السلام العالمي. فالإختلاف في العنصر والرأي والإنتاج في المجتمع العالمي يجب أن نعتز به ونعتبره كمالاً وجمالاً فطرياً يسهل التعارف والتعاون والتكامل والوحدة).^٧

وإن كانت تلك المفاهيم وهذه التعاليم قد وجدت مفرداتها في لغة الإمام الصدر، فهي راسخة ومقاصدها غزيرة في الأديان السماوية الأخرى، كما في بعض الأديان الغير سماوية. وبالخصوص أنها تتجه إلى الإنسان الذي من أجله كانت الأديان، أو بالأحرى، من أجل أن يتأمل ويبحث فيكتشف ويطور... (كانت الأديان واحدة، لأن البدء الذي هو الله واحد، والهدف الذي هو الإنسان واحد، والمسير الذي هو الكون واحد، وعندما نسينا الهدف وابتعدنا عن خدمة الإنسان، نسينا الله وابتعدنا، وأصبحنا فرقاً وطرائق قديداً، وألقى بأسنا بيننا فاختلّفنا، ووزعنا الكون الواحد، وخدمنا المصالح الخاصة، وعبدنا آلهة من دون الله، وسحقنا الإنسان فتمزق)^٨. ويتابع في نفس العظة:

(كانت الأديان واحدة تهدف إلى غاية واحدة، حرب على آلهة الأرض والطغاة، ونصرة للمستضعفين والمضطهدين، وهما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة. ولما انتصرت الأديان وانتصر معها المستضعفون، وجدوا أن الطغاة غيروا اللبوس وسبقوهم إلى المكاسب، وأنهم بدأوا يحكمون باسم الأديان ويحملون سيفها. فكانت المحنة المتعاطمة للمضطهدين، وكانت محنة الأديان والخلافات فيما بينها، ولا خلاف إلا في مصالح المستغلين).^٩

كلام الإمام الصدر في هذه المناسبة وفي غيرها، وصلت أصدأه إلى الفاتيكان وأوروبا مما دفع الحريصين في الفاتيكان لتوجيه دعوة للإمام لحضور حفل تتويج البابا بولس السادس في أوائل الستينيات. وبذلك يعتبر الإمام الصدر أول عالم دين مسلم يدخل الفاتيكان في مثل هذه المناسبة؛ وهناك أسهب في الحديث عن لبنان الدور والرسالة...

٢.١،٢ كرامة الإنسان هي الميزان

يمكن الباحث المتجول في ثنايا الفكر الصدري أن يستخلص شروط الكرامة الإنسانية كما توخاها الإمام الصدر، وسعى إلى تحقيقها. وهي الحرية، الأمن والأمان، العمل، والإنسان كل إنسان:

الحرية - انعتاق فإبداع: يعتبر الإمام الصدر أن الإنسان حر التصرف والقرار، وأنه مدعو إلى المعرفة طوال وجوده، ثم يفسر دور النبوة في إيجاد المجتمع الصالح والحياة السليمة، وأن الدين والخير من أمور فطرة الإنسان التكوينية، بينما الخروج عن القواعد العامة هي من المكتسبات، أي تأتي الإنسان من الخارج، وليست ذاتية. وفي أي من أحوال الإنسان، فإن سماحته عندما يعرض للإنسان الذي كرمه الله، ليرى كل ما فيه وكل ما يصدر عنه كريماً، وهذا في عاملين لإنطلاق الأُنسان. (فالخطوة الأولى في طريق تربية الإنسان ورفع مستواه في جميع حقول التكامل، في جعله يحس بكرامته، ويهتم بشؤون نفسه، وإلا فسوف لا يولي لنفسه أي اهتمام، ولا يبذل لإصلاح وضعه أي نشاط).^{١٠} فالحرية هي أفضل وسيلة لتجديد طاقات الإنسان كلها. ولا يستطيع الفرد أن يخدم في مجتمع لا تسوده الحرية. ولا يستطيع أن ينطلق بطاقاته وينمي جميع مواهبه إن أعوزته الحرية. فالحرية اعتراف بكرامة الإنسان، وحسن الظن بالإنسان^{١١} وتأتي حرية **المعتقد** ضمن الحريات الأساسية للإنسان، فالإسلام يحفظ حرية الرأي والعقيدة تطبيقاً لمبدأ {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة/٢٥٦]

الأمن والأمان- شرط النمو والنماء: احترم الإسلام حياة الإنسان واعتبر من أحيائها كأنه أحياء الناس جميعاً، ومن قتلها متعمداً كأنه قتل الناس جميعاً وجزاؤه جهنم. {من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيائها فكأنما أحياء الناس جميعاً}. [المائدة/٣٢] ويؤكد الإسلام في وجوب حفظ أنفس الآخرين، ويهدد الذين يهملون شؤون

فقرائهم وأيتامهم ، بحيث يؤدي إلى موت أحدهم فقراً وعجزاً. في الحديث: ((إن أهل القرية يبرأون من ذمة الله ورسوله)) وذلك لأنهم خانوا أمانة الله ونقضوا عهد الله عندما لم يؤدوا مسؤوليتهم تجاه الفرد. ما يقال عن القرية جارٍ في المدينة وفي الأوطان وفي أرجاء الأمة التي تشكل وحدة متكاملة. ويعتبر الإمام الصدر أن رفض الفرد التبعية للأشخاص والشهوات ونوازع النفس هي تحرر جوهري. كما أن احترام الكلمة المنطوقة والمكتوبة والعهود والشروط والمواثيق هي من شؤون قدسية الكلمة.

العمل- تكامل وتراكم بشري: ويعرض الإمام الصدر لأهمية العمل في الإسلام: (فعمل الإنسان هو القوة الوحيدة لتكوين التاريخ وتحريكه وتطويره دون سواه، فلا دخل للعوامل الخارجة عن سعي الإنسان في تكوين المجتمعات، وتحديد معالمها، كائناً ما كان، بل الإنسان بعمله عن معرفة، أو عن جهل، أو عن إهمال، يختار طريقاً، ويفضل خطأً، ويكون الأمر كما اختار هو لمجتمعه. فالبطل الوحيد على مسرح التاريخ هو الإنسان، يكونه ويطوره ويحركه، فيتطور هو ويتحرك ويتفاعل هكذا باستمرار. فعمل الإنسان هو صانع هذه الأحداث كلها، ليس إلا^{١٣}). وبعد هذا يفند سماحته أخلاقيات العمل وأثرها في ضمان سلامة العلاقات، وكون الإسلام يجعل وجوده مصوناً وطاهراً. ويتناول موضوع الجهد الذي يبذله الإنسان دون بلوغ غرض منظور، وأن الإسلام لا يعتبره من الجهود المهدورة، بل هي إما أن تكون تجربة تبنى عليها نتائج، أو أنها محفوظة عند الله. ويرى سماحته أن الهدر ليس في عدم بلوغ الإنسان مرامه، بل هدر الطاقة عندما يتم التنكر لجانب أساسي من وجود الإنسان، أو في تنمية جانب على جانب فيه. إذ يفقد المجتمع في الحاليتين من مواهب أفرادهم وطاقاتهم وكفاءاتهم، فيضعف من ضعف التفاعل بين الأفراد والمجتمع.

الإنسان، كل إنسان - ذاك الإبداع: المقصود هو الإنسان النوع، وليس الإنسان الجنس، ولذلك ركز الإمام الصدر على أسس تكريم المرأة الإنسان، مع إعطاء المرأة الأثني حقها بالإحساس والتمتع بأنوثتها مع مراعاة القواعد الإجتماعية العامة، وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان الذكر. ويعتبر سماحته أن الكرامة الفردية والمجتمعية تتشكل من خلال التربية وتكوين الإحساس بالمسؤولية الفردية والتضامنية.

وصورة الإنسان عند الإمام الصدر لا إطار لها يحدها. إننا إذ نقرأه يتحدث عن الإنسان، وقد قرأناه يتحدث عن الكون، وكأن الإنسان الفرد تحول كونا، وربما هذا ما دعاه إلى الإستشهاد ببيت شعر للإمام علي بن أبي طالب، وهو يخاطب الإنسان:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولا يقف الأمر بالإنسان عنده في أنه صورة الكون، بل يرفعه إلى أن يكون وحده صورة لإرادة لا تدركها العقول، موحدة ومحيطة بكل الموجودات والمخلوقات لأنها هي التي أوجدتها وخلقتها.

والإنسان دورٌ ورسالة: لكل إنسان الحق في أن ينتمي إلى مجموعة إنسانية محددة لها هويتها وكيانها وقيمها. (إن العمل على أساس المبادئ العامة لا يعتبر سياسة، واعتبره من صميم مسؤولياتي^{١٣}. لست رجل سياسة ولا رجل إدارة، وليس لي اقتراح بديل عن النظام القائم أو عن النظم التي تطالب بها عند مختلف الفئات. فانا رجل دين. ودخولي في هذه المحنة دخول مواطن يشعر بأن وطنه في خطر^{١٤}. لا أؤمن بتصنيف الناس إطلاقاً، ولا أتصرف على ضوء الإنتماءات السياسية ما لم تتعرض القيم الأساسية في حياة المواطن للخطر من جراء انتماءاته^{١٥}).

(في تكوينه، في حياته، في حاجاته، في وعيه، في تفكيره وفي جميع جوانب حياته، الإنسان في جميع ذلك موجود إجتماعي يتفاعل مع مجتمعه الذي يعيش فيه. فهل يمكنه أن يعزل إيمانه وأخلاقه وأعماله الشخصية من تفاعلات مجتمعه ولا انفصال فيما بينهما)^{١٦}.

وللإجتماع البشري بنظر الإمام الصدر ضرورات أهمها: (التفاوت في الكفاءات: فكما أن البشر شكلهم يختلف أحدهم عن الآخر، كذلك يختلف البشر في شكلهم النفسي، في استعدادهم، في كفاءاتهم. فتفاوت أفراد البشر يجعل الجريان متبادلاً بين فرد وآخر)^{١٧}. كما أن (البشر أمامهم أهداف ومنافع، هي أعظم من الفرد، وأقوى من الفرد، بحيث لا يمكن للفرد وحده أن يحقق تلك الأهداف وأن يصل إلى تلك المنافع، ولهذا هو يحتاج إلى التعاون مع الآخرين لكي يقوى ويتمكن من تحصيل تلك الغايات والوصول إلى تلك الأهداف).

وعلى هذا، فليس هنالك من مجال لتفلت الفرد أو المجتمع مما بينهما من الروابط التي نوجزها بأقصر تعبير وأشمله: (كل ما يملك (الإنسان) من أموال وطاقات وتجارب، وحتى الصحة والقوة الجسدية، إن كل ما يملك ليس ثمرة جهده لشخصه، بل شارك في تكوينه الآخرون من معاصريه ومن الذين سبقوه. فالفرد أمين على ما يملك، مسؤول عنه أمام المجتمع، بل أمام الماضي والمستقبل، وهذا يؤكد أن الفرد لا يحق له أن يحتكر ما عنده، ولا أن يتلفه أو يهمل من شأنه، ولا يجوز له أن يسيء إلى نفسه أو يؤذيها، ...)^{١٨}

هذا الإنصهار الكامل بين المجتمع وأفراده، تقتضي تشكيلاً ينظم العلاقات، ويحدد المسؤوليات، ويوحد ما بين مؤسسات المجتمع ليكون التوحد في المهام، مدعوماً بأخلاقيات العمل من ناحية، ويكون هذا استجابة لعملية الإنصهار تلك، من ناحية أخرى، فيصدق قول الإمام الصدر: (المجتمع هو الإنسان زائد العمل المتبادل، مقابل المسؤولية الفردية عن سلامة المجتمع تأتي مسؤولية الجماعة عن الفرد)^{١٩}.

سبق أن عرضنا لمفهوم الاجتهاد في الإسلام عموماً، وعند الشيعة تحديداً. ونذكر بأن الاجتهاد هو ما يسهم به الفقيه من أحكام لا تخرج عن روح النص، إلا أنها تقدم حلولاً تتناسب مع ثقافة العصر ومفاهيمه. فيما يلي نماذج لاجتهادات الإمام الصدر:

أ- في آلية تحديد بداية الشهر القمري ونهايته. وهو ما تتبعه الأديان جميعها، إسلامية ومسيحية، لتعيين مواعيد مواسمها الدينية. درج المسلمون في اجتهادهم لرؤية الهلال في الليلة الأولى، أن تكون الرؤية بصرية، بينما أخذ الإمام الصدر تعبير "رؤية" لغوياً. أي أنها بصرية وبصيرية معاً. وبنى عليها ما توصلت إليه العلوم من وسائل الكشف البصري المتطورة (المناظير المتعددة الأحجام والأبعاد)، ومن الحسابات الرياضية للحركة الكونية وللنجوم. ثم حث على الاستفادة من العلوم لتعيين بداية الشهر القمري ونهايته. وبالنسبة لموضوع الشهود المعين أن يكونوا من العدول، فوجد بأن التواصل مع الموثوقين من المسلمين المنتشرين في كل بقاع الدنيا، وأخذ ما عندهم من معلومات، يسهل على الحاكم الشرعي في اعتماد الشهادة على الرؤية.

ب- في تفسير تعبير "التهلكة" الوارد في القرآن، والمنهي عن الوقوع فيها حتى لا تكون مجازفة بالحياة. تنص الآية الكريمة (وانفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (البقرة/ ١٩٥)، وهي الآية التي عمم مدلولها بما يثبط من العزائم، ويُفقد عن واجب الدفاع عن الأرض والعرض والنفوس. أما الإمام الصدر، فقد أضاء على موقع الآية وربطه بما قبله وبما بعده في سورة البقرة، وفي غيرها من السور، وخرج بتفسير اجتهادي مؤداه أن التهلكة المقصودة هي اجتماعية بالدرجة الأولى. فأصحاب القدرات المادية والطاقات الفكرية، والذين يعيشون في وسط متخلف، عليهم واجب البذل بما يرفع من مستوى محيطهم. وإذا تقاعسوا، سيزداد المجتمع تخلفاً بما ينعكس عليهم سلباً. وهنا تكون التهلكة. أما إذا بذل المقتدر بعض ما عنده لرفع شأن المجتمع المحيط به، فسيرتقي هذا المجتمع وينعكس الأمر إيجاباً على المقتدرين من جوانب متعددة.

ت- في مسألة الزكاة، وهي إخراج نسبة من الأموال سنوياً لإبراء ذمة المكلف أمام الله، منها ما يكون صافي الأرباح، ومنها ما يكون على ما يحوزه المكلف من مال سائل، وهناك وجوه أخرى بالطبع. يقدم المال -لإبراء الذمة- إلى المرجع المكلف أو من ينوب عنه في أقطار الإسلام. والمراجع متعددون، ومندوبوهم كثر، بل وكثر جداً. وهذا يؤدي إلى الفوضى في وجوه الصرف، مما حدى بالإمام الصدر إلى إعطاء رأي اجتهادي فحواه أن يكون للزكاة صندوق تجمع فيه جميع أشكال الزكاة، وتنظم لها حسابات يظهر من خلالها مصادر الأموال وأبواب صرفها، وينظم الصندوق بما يشبه الضمان الاجتماعي، فيصرف منه لذوي الحاجات الاجتماعية طبابةً أو دراسةً أو

دعماً لتوسعة عمل أو ضمناً لشيخوخة، وما شاكل مما تتعرض له المجتمعات الإسلامية. وبهذا الطريقة تؤدي الزكاة أغراضها.

ولعلّ أكثر اجتهادات الإمام جرأة هي تلك المتصلة بالتقريب بين المذاهب الإسلامية، والحوار بين الأديان. ليس فقط لأنها تلامس شغاف الحساسيات المزمّنة، بل لأنها تقع في صميم ما نحن بمواجهته اليوم؛ حيث المحاولات حثيثة لطمس صراع المصالح الدولية ومطامع السلطة والنفوذ مقابل تظهير الخلافات المذهبية والخصوصيات الإثنية وكأنها جوهر الأزمت. يكرّر محمد السّمّك، الباحث والناشط في الحوار الإسلامي- المسيحي، بوجود رسالة رسمية من الإمام موسى الصدر مسجلة ومحفوظة في دار الفتوى اللبنانية تطلب "توحيد الفقه وتوحيد العادات العبادية حتى توحيد الأذان والأعياد الدينية واقتراح تشكيل لجان اختصاصية من المسلمين السنة والشيعة بالبحث في هذه التفاصيل، ونحن نلتزم بما يتم الاتفاق عليه بإطار هذه اللجان."^{٢٠}

وما اهتمام الإمام الصدر بالتفاصيل إلّا إدراك حكيم بأهميتها في التقريب بين الناس أو العكس. هكذا، بين الدين والإنسان، اجتهد الإمام موسى الصدر . واجتهاداته تلك تعبر عن رؤية متكاملة لماهيّة الإنسان، رحلته في الحياة، وغائيّة وجوده في المجتمع، بل في الكون.

نجمل هذه الرؤية بأن :

- الدين لخدمة الإنسان، وإن الإنسان هدف الدين وغايته على الصعيدين الفردي والإجتماعي؛
- لا معنى لإيمان الإنسان إذا لم يقربه بالعمل؛
- جدلية الواقع والإنسان والنص بعلاقة تطورية تصاعديّة؛
- الاجتهاد المستنير المنفتح المواكب للتطور والأمين على قدسيّة النص؛
- الإنسان كلّ متكامل: الجوانب الإنسانية المختلفة أي الفردية والاجتماعية والطبيعية والإلهية.

هذه هي أركان الفكر الصدري، والتي حملها منهج حياة وعمل. فالإفكر، امتاز الإمام الصدر بالتزامه بالتطبيق وبضرورة إشهار النتائج وتعميمها. "هو شيدّ الرؤية، وراح يمشي بها بين الناس فيوقظ النائمين ويستنهض القاعدين ويستمشي الواقفين، ويستركض الماشين. وهو معهم، بل هو منهم، وقد استطاع أن يحفزهم نحو حاجاتهم وأغراضهم، وأن يطور الرؤية ويكيفها على ضوء هذا التفاعل مع الناس"^{٢١}.

هذا الإنسان المتجّه دوماً نحو الكمال بحاجة إلى ميدان حركة حيث تتجلى خلافته لله. ولبنان خير مجال لتلمّس هذه الحركة. ما الآثار الماديّة والمأسسة التي تركها لنا على أرض الواقع؟

٢-٣ نماذج عملية للفكر الصدري

في أقل من عشرين عاماً (١٩٦٠-١٩٧٨)، جال الإمام الصدر لبنان طويلاً وعرضاً وحمل هموم الوطن والمنطقة إلى معظم العواصم. فحالة الاستنهاض الاجتماعي التي حمل لواءها والمراكز والهيئات والتنظيمات التي أطلقها، قد أحدثت انعطافاً اجتماعياً وتاريخياً ما تزال تداعياته وتجلياته تتردد وتتفاعل يوماً بعد يوم^{٣٢}. لقد كانت أحزمة البؤس آخذة في محاصرة المدن في ستينيات البحبوحة والرخاء عندما عاد الإمام الصدر إلى لبنان، وكانت بذور الحرب الأهلية قد وجدت الأرض الخصبة للنمو، وأخذت تترعرع بفعل عوامل وتناقضات إقليمية وعالمية متنوّعة. وتلك الأحزمة بالتحديد، كانت ساحة العمل السياسي والاجتماعي والتنموي للإمام الصدر إذ إنه أدرك وحذر مبكراً من مخاطر ما يختمر بداخلها من كوامن التفجّر. وهذا ما أثبتته السنوات اللاحقة بما حملته من مآسي ونكبات. لقد كان الإمام الصدر سابقاً في التحذير من عواقب الظلم والإهمال على الناس والوطن والحضارة. ولعلّه لم يكن "قدرًا" أن يكون في طبيعة من اصطفاهم إعصار الظلم، وقد تبعه كثيرون. في حين، أنه - أي الإعصار - اجتاح عشوائياً الأخضر واليابس.

٢-٣-١ بعض محطات

البند التالية هي محطات مختارة من تلك المسيرة، وقد ثبت لاحقاً أن كلا منها كان بمثابة المشعل أو المنارة للساعين إلى التغيير نحو الأفضل، ولا غرابة في ذلك. فهي إنجازات ومشاريع مبنية على رؤية متكاملة، وهي رؤية مستقاة من تحليل عميق لطبيعة المعضلة وأسبابها وظروف تفاقمها. وكما تراكمت الشروط والأسباب وتشابكت، جاءت الحلول - كما ونوعاً - لتعضد بعضها البعض، وإذا بكل مرحلة تبنى على ما سبقها وتؤسس لما سيليهها.

◆ بدايات في مدينة صور وضواحيها في عام ١٩٦١ استندت إلى ما أنجزه السابقون من دراسات ومشاريع، عبر برامج الدعم والمساعدة للمحتاجين وإطلاق برامج محو الأمية وإنشاء المؤسسات العامة واستنهاض دور المرأة وتمكينها من خلال تعليمها فنون الخياطة والتطريز والتربية المنزلية وإقامة دورات في الإسعاف الأولي؛

◆ باشر الإمام الصدر عام ١٩٦٣ التعاون مع أعضاء الندوة اللبنانية، كباكورة المساعي للحوار الإسلامي- المسيحي؛

◆ عام ١٩٦٧، أقر مجلس النواب اللبناني قانون إنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى استناداً إلى الأسباب الموجبة التي كان قد بيّنها الإمام الصدر في العام السابق؛

◆ أخذت اهتمامات الإمام الصدر بعداً تغييراً عميقاً يتصل بالتربية وبأدوار النساء، فأسس روضة الأطفال وألحقها بمدرسة الهدى كما حوّل دورات الإسعاف الأولي إلى مدرسة فنية عالية للتمريض ما زالت قائمة حتى اليوم؛

◆ عام ١٩٧٠، أسس هيئة نصره الجنوب، ودعا إلى إضراب سلمي وطني نشأ بنتيجته مجلس الجنوب لتنمية الجنوب ورفع الحرمان عن لبنان؛

◆ أسس حركة المحرومين سنة ١٩٧٤ لتربية الأجيال على إدراك الواقع المعيش، والسعي لإصلاحه، والمتابعة لتوفير الحاجات الإجتماعية الأساسية عبر العمل المماسس. وقد وقّع وثيقة الحركة نحو مائة وتسعون مثقفاً من مختلف الطوائف اللبنانية؛

◆ عام ١٩٧٥، أسس أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) بغرض الدفاع عن جنوب لبنان؛

◆ منذ عام ١٩٧٦ وطوال العامين التاليين، بذل جهوداً مكثفة لإنهاء الحرب الأهلية كانت نتيجتها انعقاد مؤتمر الرياض وقمة القاهرة؛

◆ عام ١٩٧٧، تقدّم بورقة العمل الشيعية حول الإصلاحات السياسية والاجتماعية في لبنان؛

◆ في ٣١ آب ١٩٧٨، انقطع الاتصال بالإمام الصدر ورفيقه الشيخ محمد يعقوب والأستاذ عباس بدر الدين، وكانوا في زيارة ليبيا استجابة لدعوة رسمية من حاكمها آنذاك، وذلك في مسعى من الإمام الصدر لاحتواء الأزمة اللبنانية التي كان العقيد القذافي ضالعاً فيها دعماً وتحريضاً لهذا الطرف أو ذاك.

يفيدنا استذكار تلك المحطات في استحضار الإطار التاريخي والجغرافي الذي تحرك ضمنه الإمام الصدر في تلك الفترة. إلى ذلك، لا بدّ من استدعاء متفرقات من النقاط التي أضاءها، والتي شكّلت منها معالم الطريق الذي سلكه كثيرون.

٢-٣-٢... وبعض قصص

للإمام الصدر العديد من المواقف المشهودة والتي راحت مضرب مثل، أو هي مبعث حنين وتحسّر بعد أن افتقدته الساحة اللبنانية. لقد تحوّل معه مسجد الصفا في بيروت إلى ساحة جهاد وصرخة رفض للقتال الأهلي، وتحوّل مكان الاعتصام إلى قبلة استقطاب هرع إليها

الآلاف من المسؤولين والروحانيين والمواطنين. ولم يفكَّ اعتصامه إلا ليرفع الحصار عن بعض القرى المسيحية في البقاع. في مكان آخر وزمان آخر، تناهى إليه أن أهالي صور المسلمين يقاطعون بائعاً للمثلجات بسبب انتمائه المذهبي، فما كان من الإمام الصدر إلا أن توجَّ صلاة الجمعة بمسيرة جماهيرية، تبعه الناس إلى أن . أنهى بهم المطاف عند البائع وتناول مما عنده. وهكذا فعل الباقون.

وفي مغالبة العادات القبلية، من المعروف أن الأخذ بالثأر والخصومات الدامية تسود لدى بعض العشائر في منطقتي بعلبك الهرمل في لبنان. مما يشوه صورة المنطقة وينعكس قلقاً وتحلفاً. كما ينشء وضعاً صعباً للدولة، وتقع أجهزتها الأمنية أحياناً طرفاً في الصراع. كان سماحته يبادر إلى عملية الصلح متوسلاً كل التقاليد والأنظمة القبلية في إيقاع الصلح من جهة، وتوقيع تعهد من الزعماء المحليين في منطقة التقاتل. أما إذا صارت الدولة طرفاً فيتدخل أيضاً لحفظ هيبة الدولة والخضوع للقانون العام مع حث الدولة على إنشاء بنى تحتية تحول الحياة القبلية إلى عيش مدني سليم.

٢-٣-٣ مشاريع وبنى مؤسسية

ضمن هذا الإطار الشامل يمكننا تتبّع المشروعات الإنمائية التي أنشأها، واختبار جدواها. لن يتسع المجال لإحصاء كل العمال والمشاريع والهيئات التي أنشأها الإمام الصدر أو نفذها أو سعى إليها ليحقق رؤاه الفكرية والفلسفية. سنكتفي بعناوين سريعة كأمثلة، وكلها مستقاة من الحاجات الإجتماعية، وتجسيد لرؤيته ونظريته للبناء الإجتماعي:

اجتماعياً وصحياً:

- القضاء على ظاهرة التسوّل في صور من خلال جمع التبرعات لدعم صندوق الصدقة،
- تطوير النظام الداخلي لجمعية البر والإحسان في صور ، بحيث يتاح إشترك النساء في الحياة العامة، وتفعيل تقديمات الجمعية عموماً،
- إنشاء مبرّة الإمام الخوئي لرعاية الأيتام الذكور،
- إنشاء مبرّة الزهراء (ع) لرعاية اليتيمات،
- إنشاء مستشفى الزهراء(ع) في الضاحية الغربية لبيروت،
- تأسيس بيت الفتاة في صور لرعاية الفتيات المعرضات وتعليمهنّ وتدريبهن.
- تأسيس المؤسسة الاجتماعية للذكور في برج الشمالي- صور

تربوياً ومهنياً وثقافياً:

- معهد الدراسات الإسلامية في صور،
- مدينة الزهراء الثقافية والمهنية في بيروت،
- مدرسة فنية عالية للتمريض،
- الجمعية الإسلامية للتخصص العلمي،
- مؤسسات مهنية للذكور وأخرى للأنثى أقامها في صور وبيروت وبعلمك، واختار لكل منطقة المهن التي تلي حاجات سوق العمل فيها.

اقتصادياً وتنموياً:

- طرح إشكالات الزراعة والري في لبنان، استناداً إلى الدراسات المعدة من قبل بعثات دولية مختصة، ومنها بعثة (إيرفد) * ومنظمة التغذية العالمية، وتابع المشاريع المقترحة للاستفادة من أحواض الأنهار وبالخصوص نهر العاصي في الهرمل شرق لبنان، ونهر الليطاني الذي ينبع من بعلمك شرقاً ويصب في صور جنوباً. ومتابعة مشاريع السدود والبحيرات الصناعية واستثمار كامل المياه السطحية،
- الإهتمام بالدراسات التي كانت متوافرة حول النفط والغاز في السواحل اللبنانية، ومتابعة كل ما يحيط بالموضوع مع إثارته على الصعيد الرسمي،
- دراسة الإحصاءات المتوافرة حول الواقع الإجتماعي الإقتصادي في المناطق المتخلفة في لبنان،
- التركيز على تنظيم الزراعات التي تعتاش منها المناطق المختلفة لتحسين الوضع المعيشي مثل زراعة التبغ، في الجنوب وتقديم مشروع شركة تساهم فيها الدولة مع المزارعين لضمان حقوق العاملين،
- البحث عن زراعات بديلة للتبغ على أن توفر مردوداً يحد من الهجرة،
- خلق الظروف والمجالات التي تمكن المرأة من المساهمة في النهوض الإجتماعي والثقافي.

كما في الطواريء والإغاثة

- الإغاثة السريعة بتوفير السكن والأغذية وكامل الحاجات الضرورية،
- التدخل لدى الدولة لتخصيص قطع أرض كبيرة في منطقة الحدث ببيروت لبناء ٢٦٠ مسكناً للمهجرين في حينه،
- التباحث مع شركة تملك أرضاً واسعة في الغبيري لشراؤها وبناء بيوت سكنية لإستيعاب أعداد أكبر عند الحاجة.

* عرف لبنان خطة انمائية وضعتها بعثة "إيرفد" IRFED الشهيرة برعاية الأب لوبريه في العام ١٩٦١. بقيت المحاولة يتيمة ولم تستكمل بسبب مقاومة الطبقة السياسية والنظام الطائفي والتحولت السياسية والعسكرية التي اجتاحت لبنان منذ عام ١٩٧٥ وإلى يومنا هذا.

منهجية العمل مع شركاء

- اتفق مع المطران غريغوار حداد في إطار (الحركة الاجتماعية) على أن يهتم بنشاطات الحركة ومشاريعها في الجنوب اللبناني،
- بادر إلى تخصيص قطعة أرض صالحة لإقامة مستشفى، ثم تعاون مع "أطباء بلا حدود" لإدارة المشروع بتخصصاته المتعددة، وتجهيزه بالمعدات.

٧. عالمية النموذج اللبناني في الحوار المعاصر

(لبنان وطن نهائي لجميع بنيه) هو مستهل ورقة عمل قدمها الإمام الصدر عام ١٩٧٧ إلى رئيس الجمهورية اللبنانية إلياس سركيس بعد سنتين على اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، لتكون مساهمة منه في استدراج مشاريع إصلاح للوضع في لبنان. ثم اعتمدت هذه العبارة استهلالاً لاتفاق الطائف عام ١٩٨٩. كما وردت في مقدمة الدستور اللبناني المعدل استناداً إلى الاتفاق المذكور. عسى شهادة اللبنانيين جميعاً شعباً ومجلساً نيابياً وحكومة ورئاسة، وإجماعهم على أنها الكلمة الحقة الصادرة عن إيمان حق بلبنان، عساها تكون حجر الأساس في استنهاض لبنان من كبواته.

(أن تدوي في لبنان أصوات من الشمال تدافع عن حقوق المواطنين في البقاع، وأن ترتفع صرخات في الجبل تعيد الحياة العمرانية والمساعي الدفاعية إلى الجنوب، وأن تسعى العائلات والأفراد المكتفية بصورة خاصة، لرفع مستوى حياة الكادحين والمحرومين، وأن تنادي وتطالب طائفة وتشجب التمييز الطائفي الذي يمارس بالنسبة إلى غيرها. هذه هي المواطنة الحق، وهذه وسيلة بقاء أي وطن^{٢٣}).

دأب الإمام الصدر على الإفصاح عما أختاره لنفسه من سبيل. وتالياً، صادق شعب لبنان بمعظمه على تطابق أقوال سماحته بعمله: (المسؤولية الدينية لا تخرجني عن المواطنة وعن مسؤولياتها. إن الإيمان بالله، والسعي لصيانة الوطن، والاهتمام بكرامة الإنسان، هي من صميم إلتزامات المواطن العادي^{٢٤}). ويضيف توضيحاً: (عملي والتزاماتي وطاقاتي التي توفرت لدي، هي أمانة الله^{٢٥})... (نفسى، وقد شاء قدرى، ألا تكون ملكاً لي، وإنما أضحت ذرة متواضعة من رصيد هذا الوطن الغالي، ولهثة رجاء، أو خفقة أمل على شفاه المتعبين وفي قلوب المعذبين والمحرومين^{٢٦}).

لفتت إنجازات الإمام الصدر ومسيرته اهتمام المراقبين والباحثين في غير مكان. ضمن قائمة "الأبطال الحواريين" الذين انتقاهم الكاتب الأمريكي Daniel. L. BUTTRY، نقرأ الفقرة التالية: "كان الإمام الصدر أبرز الوجوه الشيعية المسلمة في جنوب لبنان في ستينيات وسبعينيات

القرن الماضي. وكان مهتماً بشكل أساسي بإزالة الفقر وتحفيز التعليم لأولئك المهمشين خارج الأطر السياسية والاجتماعية الأساسية في لبنان. أسس العديد من المعاهد الاجتماعية والمدارس الفنية ودور الحضارة والعيادات الصحية ومراكز محو الأمية (...). وبغض النظر عن دوره في تأسيس حركة أمل الشيعية، فقد كان ناشطاً خلال الحرب الأهلية في جهود بناء السلم. وقاد شخصياً صيماً لأجل السلم وتظاهرة لفك الحصار عن قرى دبر الأحمر والقاع المسيحيين^{٢٧}.

لعلّ حجم البلد الذي اتخذه الإمام الصدر نموذجاً، أي لبنان، لا يتناسب مع صفة العالمية. لكن الفكر الذي حمله وفهم عمقه هو العالمي. ومن عمق فهمه، كانت عالمية الأثر المتوخى وكونية الشغف المبذول. فرؤيته شاملة للإنسان، ووجود الإنسان مترابط بخيوط أو جوانب فردية وطبيعية واجتماعية وإلهية.

٢-٤-١ خطاب راسخ

ويستمر مخاطباً اللبنانيين، علّ صوته يعلو على صوت القنابل والقذائف والمتفجرات: (إن الوطن يعيش في ضمائر أبنائه قبل أن يعيش في الجغرافيا والتاريخ. ولا حياة للوطن بدون الإحساس بالمواطنية والمشاركة. وهذا يجب أن يبرز بصورة واضحة وسريعة ودائمة في ترفعكم عن العائليات والأقليات والطائفيات والحزبيات).^{٢٨}

ففي لبنان الرسالة يقول: (نتيجة لتوسع المواصلات نشعر أن العالم في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، يعيش كأنه بلد واحد، فأقصى مسافة بين بلد وآخر في العالم لا تتعدى اليوم مسافة الانتقال بين بيروت وطرابلس. إذن هذا العالم المترابط الذي يضم الأديان، والتعايش بين أبناء العالم من أجل استمرار الإنسان في بناء الدولة الواحدة الكونية مرتبط ومتأثر إلى حد كبير بنجاح صيغة لبنان التعايشية^{٢٩}).

٢-٤-٢ جسر حضارة

(الحوار العربي - الأوروبي، بما لأوروبا من خبرة وتجربة وموقع، وبما للعالم العربي من تراث حضاري وثروات وموقع جغرافي، يضع أمام العالم اليوم أملاً كبيراً ببروز قوى سياسية لولبها الحوار المسيحي - الإسلامي، فإذا (سقطت تجربة لبنان سوف تظلم الحضارة الإنسانية لمدة خمسين عاماً على الأقل، لذلك نقول إن لبنان في هذه الفترة ضرورة حضارية أكثر من ذي قبل)^{٣٠}. ما الرابط بين الحوار العربي- الأوروبي، والذي سيكون لبنان لولبه، وبين انتعاش حضارة ما في مكان ما من العالم؟ وبالعودة إلى العنوان، وإلى تصور تأثير لبنان، الذي هو من أصغر بلدان العالم، على حركة حضارية عالمية في مكان ما، لا بدّ من بعض التمعن والبحث.

لطالما ردّد وشدّد على وحدة لبنان أرضاً وشعباً! هذا اللبّان الذي يعدّ حالياً أربع ملايين نسمة موزعة على ثمانية عشر طائفة منها ثلاث طوائف تتعدى مجموعها مليونين ونصف، ويبقى مليون ونصف موزعة على خمسة عشر طائفة، بمعدل مائة ألف لكل طائفة. والملايين الأربعة منقسمة إلى يمين ويسار، وكل قسم له جماعته ومنطقة نفوذه في مساحة لبنان التي بالكاد تتجاوز عشرة آلاف كيلو متر مربع! بالمقابل، هناك صورة إنسان لبنان، الإنسان الذكي المغامر، المجرب، المنتشر في كل بقاع المعمورة، والعلاقات التي شكلها الانتشار في السياسة والإقتصاد والعلم والفن، وما يمكن أن يستثمره لبنان المقيم والمهاجر من موقع محرك ومتحرك كما وصف سماحته بأنه لولب فيما لو وحّد طاقاته وعلاقاته بين الداخل والخارج، لأنتج حالة حضارية مميزة في مجموعها الثقافي المتعدد، والتجارب التاريخية الغنية.

وحتى يكون لبنان الرسالة، فعلى اللبنانيين أن يتحسسوا المعالم ابتداء من تحسس شروط المواطنة (أما إذا تم الوفاق الوطني ودخلت الإرادة والرؤية اللبّانيتين في الساحة، فإن المستقبل يصبح حتى في أبهى صورته رهن أيديهم. لا يمكن أن تكون قدرين فالتاريخ لا يقبل لنا ذلك ولا الإيمان مصدر العقل المبدع ولا القلب الدافئ يسمح به^{٣١}. نريد لبّاناً عربياً، لا جسماً غريباً في المنطقة يأخذ ولا يعطي. أو يعطي ولا يأخذ. بلداً متفاعلاً مع أشقائه، يتحمل معهم مسؤولياته العربية، ويشارك في المصير العربي، ويتمتع بكامل مزاياه. نريد الخروج من النفاق السياسي والتقرّم الوطني بحجة عدم التمحور، نريد التخلص من السلوك وراء شعارات ذات معانٍ متعددة. نريد لبّان العربي الحر المستقل^{٣٢}.

٢-٤-٣ التعايش رسالة

ولقد كان من أسس إقامة المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، أن يعمل لتنظيم طاقات الطائفة ووضعها في المسار العام للمجتمع. إذ أنها كانت مشتتة بين قوى متنازعة دون رابط يحفظ لها الجهود ويؤطرها نحو الآخرين. (التنظيم سيؤدي إلى تنسيق الطاقات وتجنيدتها ومنعها من الهدر والإصطدام^{٣٣}). وبعد أن يعدد أهداف التنظيم ومهامه، يضعه في المكان الذي يتيح خدمة لبنان، رأى أنه (يسهل مهمة التوحيد الكامل عن طريق الحوار، والتفاهم والتقارب ولا حوار إلا بين الممثلين الحقيقيين).

وإن كان الإدعاء بأن الحرب الدائرة تدور بين صفتين دينيين، فمن الذي يمثل الدين؟ المتقاتلون أم العائلات الروحية التي عقدت مؤتمراً في مقر البطريركية المارونية في بركي بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٤؟ وأصدر المجتمعون بياناً يؤكدون فيه بأن الله يجمع عباده لأي دين انتموا، ويوحد بينهم عندما يتخلقون بأخلاقه، ويشجبون كل أشكال العنف ليعيش الناس بأمان وتراحم، تربط بينهم القيم الروحية، ويحذرون من العواقب منبهين إلى ضرورة تغليب العقل، وغير هذا مما يصدر من رجال الله والمنقطعين إليه، ليكون بعد ذلك مؤتمر يعلن تشكيل هيئة نصره

الجنوب، تمثل جميع رؤساء الطوائف لحماية الجنوب، ورعاية كرامة الإنسان في سبيل لبنان المتمايز بحمل أمانة الله.

وقد أكد سماحته من خلال هذه الملتقيات على تدارك أوضاع لبنان مصراً على ما كان يقوله منذ أن حلّ في لبنان، وعليه أخذ يشكل للشعبة شخصية سوية تساهم في حركة النهوض بلبنان. (إن الطائفية لها أكثر من معنى، فقد تكون سياسية. وكثيراً ما يقصد بالطائفية الإهتمام بشؤون الطائفة، منهم من يقصد بذلك التدين. ولكن الطائفية الخطرة هي السلبية، واتخاذ الطائفة حاجزاً أمام التعاون والتفاعل لا قاعدة لهما. وهذا معنى آخر، وعلاجه التربية الدينية الصحيحة، وسعي المخلصين سعياً مطلقاً بعيداً عن المساومات. وإني أعتقد أن الشعب اللبناني إذا ترك طبيعته فهو ليس طائفيّاً سلبياً، بل يرغب في التعاون مع مواطنيه بكل إخلاص^{٣٤}).

(إن أكثر الناس تعصباً للطائفية في لبنان هم أبعدهم عن التدين. الطائفية ما وضعت كدين قائداً للحكم، ولكن كتقسيم للناس. وعلى هذا الأساس، فالطائفية في لبنان بحث سياسي، وليس بحثاً دينياً، وعليه يناقش الموضوع على الصعيد السياسي. والإنسان لا يمكن أن يوافق على هذا لأن معناه تحديد الكفاءات وتجميد الكثير من الطاقات).^{٣٥}

(أمانة الله هي الإنسان. حفظاً لهذه الأمانة مع كل ما أنعم الله عليها من قدرة وكفاءة وإمكانية ذهنية وجسدية وعاطفية وحركية. ولهذا نجد الإمام الصدر وهو يعري الطائفية السلبية يقدم لنا التعايش صورة حياة للإنسان اللبناني دون تمييز في عقيدته أو مهنته أو منطقتة. إذ (التعايش ليس ملكاً للبنانيين، لكنه أمانة في يد اللبنانيين ومسؤوليتهم وواجبهم وليس حقهم. تتمسك بوحدة لبنان ونحافظ عليها وعلى استقلال لبنان وعلى انسجام لبنان مع المنطقة، وعلى صيانة هذا الكيان الذي هو أمانة للحضارة العالمية)^{٣٦}).

(التعايش هو الميزة الحية على رغم ميزات لبنان في تاريخه وقوة أهله ومناخه. الرسالة اللبنانية في التعايش)^{٣٧}. وحتى تتجاوز هذه الميزة دائرة الشعار والخطاب، وتتحول إلى أسلوب حياة، ونمط تواصل، انتهجهما الإمام الصدر في مسيرته ونضاله. كما حرص على بث مفردات الحوار وتعميمها حيثما حلّ وكيفما ارتحل.

٧١. الخلاصة: أهمية الفكر الصدري في الوقت الحاضر

يستطيع المتتبع لتطورات الأحوال في الدول العربية (والإسلامية استطراداً) أن يلحظ تنامي الهواجس على أكثر من مستوى:

- كيف ستمكن هذه المجتمعات من تجاوز حقبة العنف، والانتقال إلى أوضاع تحفظ حقوق الناس في الحياة والكرامة والحرية؟
- تنامي القلق على أوضاع الأطراف الضعيفة، كالنساء والأقليات الدينية والعرقية؛
- تشلّع المجتمعات والشعوب في لجة المصالح الدولية التي تتجاذب هذا الطرف أو ذاك؟

وفي نظر الكثيرين، يتشعب السيناريو الأسوأ إلى خطرين كبيرين:

الأول: الهجرات الجماعية لمسيحي الشرق، وإفراغه من مكوّن حضاري هو دليل البشرية أو خشبة خلاصها تجاه شؤم "صراع الحضارات"؛
والثاني: الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وما تثيره من كوابيس لها جذورها العميقة في الذاكرة، ولها مضاعفاتها المدمرة على المجتمعات والشعوب الإسلامية.

لم تكن هذه الهواجس بعيدة عن ذهن الإمام الصدر. ولعلّه زرع ذاته في لبنان لأن في هذا الأخير معظم المسوغات والشروط والفرص التي تنفي تلك المخاطر أو تتيح دحضها على أقل تقدير، بل كأن لبنان بتاريخه وتركيبته وتجربته هو نقيض الأحداث المريرة التي تعصف بالمنطقة. إنّه الترياق. وهو لم يكن يشاغف ترفاً فكرياً أو يمارس رياضة ذهنية في حقل تجارب اسمه لبنان، بل كافح لإثبات أطروحته بلا هوادة، وبكل ما أوتي من طاقة.

- المتصفح لواقع الطائفة الشيعية في لبنان منتصف القرن الماضي، يجدها تحت وطأة التهميش والانكفاء والياس. ثم جاءها الإمام الصدر ليعبر بها نحو استشعار الثقة بالنفس وبناء الذات، وبما يمكنها لاحقاً من الثقة بالآخرين لبنينا معاً الوطن النموذجي يحملونه هدية إلى عالم ما فتى يتصدّع. وهو تفادي تشكّل ذات عصبوية متوترة، بل ذات متواصلة ومتشاركة في بناء وطن أسسه الكرامة والعدالة والمشاركة.

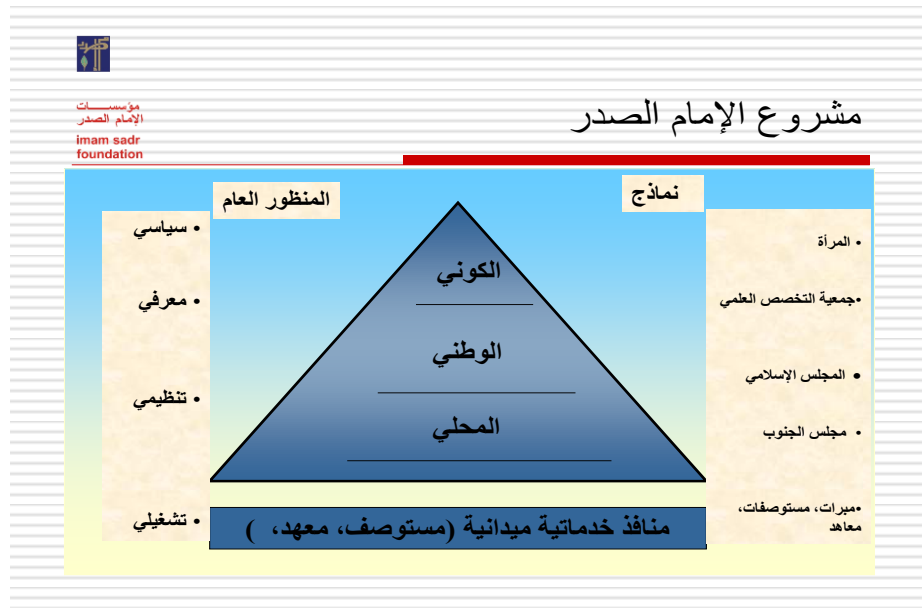
- لا شك أن توّسل الحق والعدالة والكرامة في بناء المجتمع والوطن والدولة، لا يعني الانغلاق دون الآخرين ولا إمامة الدولة ولا تشييع المجتمع. لقد قام الإمام

الصدر باستدعاء ما يختزنه المحرومون من محتويات اللاوعي والوجدان من غبن تاريخي وإهمال مزمن ورفض للإقصاء وغيرها من المظالم السلبية، ونجح في تحويلها إلى طاقة إيجابية تمثلت في الحماس الثوري المؤطر ضمن إرادة التغيير نحو المجتمع الفاضل والفاعل في الحضارة الإنسانية.

• حرص الإمام الصدر ليس فقط على مشاركة الناس في مشروع التغيير بل على اقتناعهم بهذا المشروع وإشهار موافقتهم عليه (مهرجان بعلبك ومهرجان صور عام ١٩٧٤)؛ وهذه الممارسة هي ما يفيد الجماهير المتحركة في المدن العربية اليوم. هي بحاجة إلى القيادة المعروفة، واضحة الأهداف، والحريصة على نيل شرعية الناس ودعمهم.

• وعلى تعددية المرجعيات الشيعية عبر العالم، معطوفة على مفهوم الاجتهاد وما يتيح من آفاق التكيف والتجديد، فبالإمكان فتح كوة في معضلة السلطة والزعامة وآليات الحكم. وتجربة الإمام الصدر لم تكن يوماً عصية على الإلهام والتجريب. فهو -على تصديه الواضح للعمل السياسي- لم يطرح نفسه محترفاً يمارس السلطة بمعناها التقني؛ بل مارس حقه كمواطن في القيادة والتشديد والضغط لوضع الإصبع على مكامن النزف والهدر والتمييز، وعمل على تعزيز المواطنة بركنيها الحقوق والواجبات؛

أخيراً، وبالعودة إلى عنوان البحث في عالمية الإمام الصدر ، يمكن تمثيل الإسهام الذي أتى به على هيئة هرم متعدد الطبقات، وهو نموذج تم تطبيقه في قسم الدراسات التابع لمؤسسات الإمام الصدر- لبنان^{٣٨}:



- في الأسس القاعدية للإنجاز، نجد بالمنظور التشغيلي كل المنافذ الخدمائية الميدانية بين مستوصف ومعهد ومبرة ومدرسة؛
- بالمنظور التنظيمي، تجلّت الإسهامات المحليّة للإمام الصدر في العديد من البنى المؤسسية التي أدارت تلك المرافق أو أنها تولّت إدارة حاجات مناطقيّة ووظرفيّة، مثل مجلس الجنوب؛
- في طبقة أعلى، يجد الباحث آليات الضبط والمحاسبة والمشاركة، وما تلازم معها من موثيق وعرائض وبرامج عمل، وكلّ ما يندرج في مستوى الحكم الصالح (حسب مفردات اليوم)؛
- بالمنظور المعرفي، وفي مستوى يجمع بين الوطني والعالمي، يعتبر إرث الإمام الصدر معيناً معرفياً مهماً. وعلاوة على منهجيته العلمية المتمثلة في تفحص الإحصاءات والدراسات وتقييم الحاجات وقياس تأثير المشاريع؛ فقد امتاز بحضور واسع وكاريزما تواصل قلّ نظيرها. وقد أمكنه توظيف موهبته ومهارته وعلمه في تعميم خبرته ونتائجها على شتى المستويات الفكرية والعملية، النخبوية والشعبية على السواء؛
- ختاماً، نصل إلى الجوهر العالمي في قمّة الهرم. وذلك بمجرد أن نستخدم المنظور السياسي لتقييم وتفحص القيمة التي أضافها الإمام الصدر على التجربة الإنسانية. بإمكان الباحث أن يستخلص، من كل المستويات السابق ذكرها، ما يصلح لأن يأخذ بعداً عالمياً، أو يستحق تجربته في مكان آخر. نقول بإيجاز شديد أن منهجيته في أن يتولى الناس تحديد حاجاتهم الحياتية ويتمكنوا من حلّها بأنفسهم هي بيت القصيد. والناس بالنسبة إليه كانوا المرأة والرجل، وهذه إضافة جوهرية في الأرياف والحوضر الشرقية. ينجم عن هذه المشاركة حالة من الإحساس بالرضى والثقة بالنفس، وهي الشرط الضروري للثقة بالآخرين تمهيداً للعمل معهم، والتلذذ بإنجاز التقدّم نحو الأفضل. يتيح هذا التقدّم، بل يعزّز قيم المشاركة والحوار والاعتراف بالآخر، بما يفضي إلى تعزيز فرص السلم والتعاون. ويصح هذا على مستوى العائلة والمشروع المحلي، كما على مستوى العلاقات بين الطوائف والدول والشعوب. وخيار الإمام الصدر أن يكون لبنان هو المصداق على صحّة أطروحته في تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، هو الحلم الصعب التحقق.

جمال الحلم كان وسيبقى في جسامه التحديّ.

- Naom Chomsky, Responsibility and War Guilt, conference interview, 25 June 2007, Znet. ^١
- Islam, Universalism, and Relativism, www.onislam.net ^٢
- ٣ الإسلام وثقافة القرن العشرين، محاضرة للإمام الصدر في الندوة اللبنانية بتاريخ ١٩٦٥/٥/٢٤
- ٤ Kurzman, Charles; Liberal Islam, Oxford University press, 1998 (pp. 5-9)
- ٥ اضواء وتأملات، محاضرة للإمام الصدر في الندوة اللبنانية بتاريخ ١٩٦٤/٤/٦
- ٦ Fouad Ajami, throughout his book The vanished Imam: Musa al-Sadr and the Shi'a of Lebanon (New York: Cornell University Press, 1986).
- ٧ الإسلام وثقافة القرن العشرين، مرجع مذكور
- ٨ من عظة الصوم للإمام الصدر في كنيسة الكبوشية - بيروت في ١٩٧٥/٢/٢٠
- ٩ من عظة الصوم، مرجع مذكور
- ١٠ الإسلام وكرامة الإنسان، محاضرة للإمام الصدر في الجامعة الأمريكية في بيروت بتاريخ ١٩٦٧/٢/٨
- ١١ لا صيانة للحرية إلا بالحرية، كلمة الإمام الصدر في تأبين الصحفي كامل مروّة، ألقيت في الزرارية بتاريخ ١٩٦٦/٥/٢٠
- ١٢ الإسلام وكرامة الإنسان، مرجع مذكور
- ١٣ المقاومة والنظام والشيعة، حوار صحفي (مجلة كل شيء) بتاريخ ١٩٧٣/٦/٣٠
- ١٤ الجنوب بين الدولة وممثليه، حوار صحفي (صحيفة الجمهورية) بتاريخ ١٩٧٠/٤/٦
- ١٥ تيار الإمام وحركة المحرومين، حوار صحفي (جريدة الأنوار) بتاريخ ١٩٧٦/١٢/٢٧
- ١٦ الإسلام وكرامة الإنسان، مرجع مذكور
- ١٧ الجانب الاجتماعي في الإسلام، محاضرة للإمام الصدر في جامعة دكار في السنغال بتاريخ ١٩٦٧/٥/١٥
- ١٨ العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام وأوضاع الأمة الإسلامية اليوم، بحث قدمه الإمام الصدر في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي في تلمسان- الجزائر، بتاريخ ١٩٧٥/٧/٢٦
- ١٩ العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام... مرجع مذكور
- ٢٠ "الإمام موسى الصدر بين القومية والوطنية"، محمد السمّك، جريد المستقبل، ٥ أيلول ٢٠٠٥، كما يمكن مراجعة (المستقبل) عدد ١ أيلول ٢٠٠٨، ونص مقابلة اجرتها محطة NBN مع الباحث بتاريخ ٢٨ آب ٢٠٠٣.
- ٢١ منبر ومحراب، حسين شرف الدين، بيروت
- ٢٢ Rodger Shanahan, Transnational Links Amongst Lebanese Shi'a Clerical Families, in Journal of Shi'a Islamic Studies. Vol.V1. No.3. P. 311
- ٢٣ معنى العيد ومفهوم الوطن، رسالة الإمام الصدر في عيد الفطر، بتاريخ ١٠٦٩/١٢/٨٠
- ٢٤ حركة المحرومين، الإقطاع وإسرائيل، حوار صحفي مع الإمام الصدر (جريدة الأنوار) بتاريخ ١٩٧٥/١/٢٢
- ٢٥ الحركة والثورة، حوار صحفي مع الإمام الصدر (اليقظة الكويتية) بتاريخ ١٩٧٥/١/١٣
- ٢٦ تقرير إلى المحرومين، ومؤتمر صحفي بتاريخ ١٩٧٥/٩/١١ (كتيب يحمل نفس العنوان).
- ٢٧ Daniell BUTTRY, Interfaith Heroes, P.102, by the Michigan Roundtable for Diversity and Inclusion, 2008
- ٢٨ من رسالة الفطر للإمام الصدر (معنى العيد ومفهوم الوطن والمقاومة) بتاريخ ١٩٦٩/١٢/٩ كما نُشرت في جريدة "الجريدة"، عدد ١٩٦٩/١٢/١٠
- ٢٩ لبنان والحضارة الإنسانية، حديث مع وفد نقابة المحررين في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بتاريخ ١٩٧٧/١/١٧
- ٣٠ لبنان والحضارة الإنسانية، حديث مع وفد نقابة المحررين، مرجع مذكور.

-
- ٣١ أسس الحوار الوطني، حوار صحفي (جريدة النهار) بتاريخ ١٩٧٨/١/٣١
- ٣٢ بيان للإمام الصدر لمناسبة مرور سنة على الحرب الأهلية. منشور في جريدة النهار ١٩٧٦/٤/١٧
- ٣٣ كلمة الإمام الصدر إثر اجتماع الهيئتين التنفيذية والتشريعية وانتخاب الإمام الصدر رئيساً للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بيروت، دار الافتاء الجعفري، بتاريخ ١٩٦٩/٥/٢٢، الصحف اللبنانية
- ٣٤ الأهداف والتنظيم، حوار صحفي مع الإمام الصدر (جريدة الحياة) بتاريخ ١٩٦٩/٥/٢٥
- ٣٥ الطائفية في لبنان سياسة وليست ديناً، حوار صحفي مع الإمام الصدر (مجلة المصور) بتاريخ ١٩٧٠/٣/٥ أثناء مؤتمر البحوث الإسلامية في القاهرة
- ٣٦ لبنان والحضارة الإنسانية، مرجع مذكور
- ٣٧ لبنان والحضارة الإنسانية، مرجع مذكور
- ٣٨ نموذج التنمية الشاملة في تجربة مؤسسات الإمام الصدر، رائد شرف الدين، محاضرة في مؤتمر "كلمة سواء" العاشر بعنوان " التنمية الانسانية ابعادها الدينية والاجتماعية والمعرفية " ، بيروت، ٢٠٠٥